مُستَلٌّ من مجلة (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) جـ٩ صـ١١٦

قولهم "كان مما يفعل كذا"[١]

للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور

العضو المراسل من تونس

لقد صدق ابن فارس إذ قال : ما بلغنا أن أحدا ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها . وقال : إن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله . وبنى على قوله ذلك أن زعم أن الفقرة الأخيرة الواقعة فى كتاب العين وهى "هذا آخر كلام العرب" لا يظن أنها من كلام الخليل فإن الخليل أجل من أن يقول هذه الكلمة.

وقال الإمام الشافعى فى كتاب الرسالة فى أصول الفقه[٢]

"لغة العرب أوسع اللغات مذهبا وأكثرها ألفاظا، ولا نعلم أنه يحيط بجميع علمها إنسان غير نبى، ولكنه لايذهب منه شىء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه" ثم قال : "فإذا جمع علم عامة أهل العلم أتى على لغتهم ، وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشىء منها ثم كان ماذهب عليه منها موجودا عند غيره"

وهذا نص جيد من الشافعى ذى المكانة السامية فى العربية، البالغ بها مرتبة الذين يحتج فى العربية بأقوالهم .

فيتبين بهذين أن العربية وإن جلت عن أن يحيط بها علم أحد كما قال ابن فارس لا تعدم عناية أئمة اللغة والنحو والأدب والتفسير والحديث بحفظ كثير منها بحيث يلتئم من مجموع الجهاز اللغوى المحفوظ جميع لغة العرب أو معظمها المهم منها . فإن فات منها فائت أو أميت مائت فما هو عليه بالمأسوف ، ولأهل اللسان غنية عن ندوره بالفصيح المألوف .

هذا واللغة تنقسم الى كلم أى مفردات وإلى كلام أى مركبات .

فالمفردات : منها أسماء أعيان . وأسماء أحداث أى أحوال الأعيان . وروابط وهى الكلمات التى تفيد معانى نسبية من قبيل الأكوان صالحة للربط بين أسماء الأعيان بعضها مع بعض بأن تفيد حدوث معنى بين اسمين من أسماء الأعيان، وتسمى حروف المعانى وهى شبيهة بأسماء الأحداث فإن قوله تعالى "تنبت بالدهن" ربطت الباء بين ضمير الشجرة وبين الدهن فكان المعنى أنها موصوفة بالنبات وأنها متلبسة بالدهن، فأفادت الباء معنى لم يتوصل الى إفادته باسم الحدث، فإن النبت لا يفيد إلا نابتا، فإذا أريد التأليف بين النابت وبين مسمى اسم آخر ولم يمكن تعلق فعل النبات به، احتيج إلى حرف يصل بينهما على معنى كون من الأكوان الخاصة، وهذه الأكوان الخاصة هى المعبر عنها بالمعانى الجزئية.

(١) عرض هذا البحث فى الجلسة الحادية عشرة من جلسات مؤتمر المجمع فى دورته الثامنة عشرة .
وأحيل الى لجنة الأصول فقررت اعتبار هذا التركيب اصطلاحا لغويا يقصد منه الكثرة ، وقد يدل على القلة أحيانا . ووافق مجلس المجمع على ذلك فى جلسة ٢٦ مايو سنة ١٩٥٢ (انظر مجلة المجمع ج ٨ ص ٤٤٧).

(٢) صفحة ٢ ٤ طبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر سنة ١٣٥٧

وهـــذه الأنواع الثلاثة موضوعة بالوضع الشخصى وقد دون لإحصائها علم متن اللغة . ومنها (أى المفردات) المشتقات وهى كلمات ذات صيغ تدل على ما قامت به الأحداث وما تعلقت به ، وعلى أزمانها ، ومعظمها مصوغة من أسماء الأحداث أو مصوغة مما نزل منزلة أسماء الأحداث بما يؤخذ من أسماء الذوات فيصير كالحدث مثل تحجر وتمر ، ولكونها كذلك كانت موضوعة بوضع تابع لوضع ما تصاغ منه .

ومعنى الصيغة أنها كيفية خاصة وقوالب مختلفة تشتمل على حروف الأحداث أو بعض حروفها ، بجعلها على حركات معينة أو بضميمة حروف إليها . ولكون هذه الصيغ معينة الأشكال ومختلفتها كانت موضوعة بالوضع النوعى المعروف فى فن الوضع ، أعنى أنها وضعت بقواعد كلية تنطبق كل قاعدة منها على الجزئيات التى تتحقق القاعدة فيها ، وقد دون لها علم الصرف .

وأما المركبات فهى موضوعة بالوضع النوعى سواء فى كيفية انتظام بعضها مع بعض وتقديم بعضها على بعض بحسب ما يفيد مراد المتكلم من حصول معانى مفرداتها أو فى كيفية ذكر ما يذكر منها وحذف ما يحذف فى اللفظ وهو منوى فى النفس أو فى أحوال أواخر الكلم المتركبة هى منها بحسب ما يعجل بفهم مراد المتكلم أو ما يدفع اللبس عن مراده . وتلك أحكام الإسناد والتعلق وآثارها فى المفردات من هذه الحيثية ، وقد دون لها علم النحو .

وقد يتداخل بعض علوم العربية مع بعض فى التعرض إلى أحوال الشىء الواحد بناء على اختلاف اعتبار أهل العلوم فى تلك الأحوال فكل يرى لبعض الاعتبارات مزيد اختصاص بعلمه ، فتجد له ذكرا فى علمين أو أكثر . ولكن إذا لم تكن اعتبارات مختلفة للألفاظ تعين أن يختص بها العلم المدون لموضوعها فى الاصطلاح بعد تمايز العلوم بتمايز موضوعاتها ، فإذا ذكرت ألفاظ فى غير كتب العلم المختص بها باعتبار موضوعها عد ذكرها فى تلك الكتب تطفلا وإن كان هذا التطفل شائعا فى كتب العربية وبخاصة كتب النحو .

فبان بهذا أن لعلم متن اللغة مزيد اختصاص بالبحث عن مفاد الكلم المفردة ، ذلك المفاد الذى يختلف عند التركيب فى الكلام .

ثم قد يكون استعمال العرب تركيبا فى معنى ليس مما يفاد بواسطة اجتماع معانى مفردات ذلك التركيب ، ولكنه يشابه استعمالا جمليا ، فيصير ذلك المركب بمنزلة مفرد موضوع للدلالة على معنى واحد بحيث لا يفى تفكيك معانى مفرداته بجميع المعنى المراد منه ، فينعزل هذا الصنف عن الانضواء تحت موضوع النحو ، ويأوى إلى الانضواء تحت موضوع علم متن اللغة .

وسبب ذلك ليس هو بالخاصية والبحث بل لحدوث استعمال استعمل به بعض أهل اللسان تركيبا فى معنى واحد يفاد منه عند إطلاقه إما باعتماد على مجاز أو كناية أو تمثيل ثم يتكرر استعماله كذلك فى ذلك المعنى تكررا ناشئا عن استجادة أذواق سامعيه باستعماله فى منتدياتهم أو أسواقهم عقب سماعهم إياه المرة بعد المرة حتى يصير التركيب — فى دلالته على مجموع ذلك

المعنى — مماثلا لحال دلالة المفردات على معانيها الموضوعة هي لها ، بحيث ينتقل المعنى الحاصل منه عما كان يحصل منه بحسب اجتماع معاني مفرداته إلى معنى جديد مصطلح عليه غير متحصل من مجموع مفرداته، بحيث لو سمعه غير الممارس لاستعمالهم لما فهم منه ما أرادوه وإذا سمعه الممارس لهم وقع في نفسه موقعا عظيما لما فيه من جزيل المعنى وخفة اللفظ .

وهذا مثل التراكيب التي خفيت فيها ملاحظة المعاني الموضوعة هي لها نحو قولهم "كذب عليك كذا" بمعنى التحريض على تحصيله . ومثل التركيب الذي ينطق به ناطق بليغ في قصة جرت فيؤخذ منها ويستعملونه لقصد التذكير بما احتوت عليه تلك القصة وهي الأمثال . حتى ترى ما كان كلاما قد صار بمنزلة كلمة مفردة فتحتاج إلى ما تبنى عليه من لفظ ظاهر أو مقدر . فاذا صارت المركبات إلى هذا الحد كانت حرية بأن تدرج في دواوين متن اللغة، ولهذا نراهم يذكرون الأمثال في مواد كتب اللغة ، وأحق منها بذلك الكلام الذي خفيت فيه المناسبة بين معاني مفرداته وبين المعنى الذي يراد منه في الاستعمال أو تردد الأئمة في أي مفرداته كان منشأ لإفادة ذلك المعنى ، فيكون صنيع أهل اللغة الجزم بحصول ذلك المعنى بقطع النظر عن منشئه .

المقصد

فمن المركبات التي استعملت استعمال كلمة مفردة ما وقع في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى "لا تحرك به لسانك لتعجل به" قال ابن عباس : كان رسول الله يعالج من التنزيل شدة إذا نزل عليه الوحي وكان مما يحرك لسانه وشفتيه ، فأنزل الله تعالى "لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه" . وقد أهمل معنى قوله "مما يحرك شفتيه" ابن الأثير في النهاية وبينه عياض في المشارق فقال "معناه كثيرا ما يحرك به شفتيه — قال ثابت[1] في مثل هذا كأنه يقول هذا من شأنه ودأبه ، فجعل ما كناية عن ذلك ، ثم أدغم النون ، وقال غيره معنى (مما) هنا ربما وهو من معنى ما تقدم ، لأن ربما تأتي للتكثير أيضا . وفي مسلم في حديث النجوم أمنة السماء "وكان كثيرا مما يرفع رأسه إلى السماء"، تكون مما هنا بمعنى ربما التي للتكثير وقد تكون فيها زائدة ا هـ" وأقول شواهد هذا الاستعمال كثيرة في الحديث والشعر، ذكر عياض منها قول ابن عباس المتقدم ومنها قول رافع بن خديج[2] "كنا نكرى الأرض بالناحية منها مسمى لسيد الأرض قال فمما يصاب ذلك وتسلم الأرض ومما تصاب الأرض ويسلم ذلك" الخ . ومنها قول ابن عباس[3] إن رسول الله كان مما يقول لأصحابه

---

(١) هو ثابت بن حزم بن عبد الرحمان العوفي السرقسطي أبو القاسم المالكي قاضي سرقسطة سمع من ابن وضاح وسمع بمكة وبمصر ولد سنة ٢١٩ وتوفي بسرقسطه في رمضان سنة ٣١٣ كان بصيرا بالحديث والعربية والشعر، ألف كتاب الدلائل في شرح ما أغفله أبو عبيدة وابن قتيبة من غريب الحديث قال أبو علي القالي ما أعلم انه وضع بالأندلس كتاب مثله قال ابن الفرضي واو قال أبو علي ما وضع بالشرق مثله ما أبعد . ترجمه في الديباج .

(٢) في صحيح البخاري في باب الحرث والزرع

(٣) في صحيح مسلم في كتاب تعبير الرؤيا

"من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له". ومنها قول البراء بن عازب [١] كنا إذا صلينا خلف رسول الله مما نحب أن نكون عن يمينه . ومنها قول أبي حية النميري [٢] :

وإنا لممـا نضرب الكبش ضربة
على رأسه تلق اللسان من الفم

وأنا أزيد منها قول مالك بن أسماء الفزاري [٣]

وحديث ألذه وهـو ممـا
يشتهي السامعون يوزن وزنا

أي كثيرا ما يشتهيه السامعون ، وهو موزون لا فضول فيه .

وقد أغفلت كتب اللغة هـذا اللفظ لولا أن تنبه له شراح الحديث ، ولكن تعرض إليه السيرافي في شرح كتاب سيبويه وهو متأخر عن ثابت السرقسطي .

قال سيبويه « اعلم أنهم ممـا يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك الخ »

قال السيرافي : أراد ربما يحذفون ، وهو يستعمل هذه الكلمة كثيرا في كتابه ، والعرب تقول أنت مما تفعل كذا أي ربمـا تفعل ، وتقول العرب أيضا أنت مما أن تفعل أي أنت من الأمر أن تفعل ، فتكون ما بمنزلة الأمر (أي الشيء) وأن تفعل بمنزلة الفعل (أي مصدر فعل أي بمنزلة هذا اللفظ) ويكون أن تفعل في موضع رفع بالابتداء وخبره مما ، وتقديره أنت فعلك كذا وكذا من الأمر الذي تفعله . اهـ

وأخذه منه ابن هشام في مغني اللبيب عند الكلام على معاني من . فقال : العاشر من معانيها مرادفة ربما . وذلك إذا اتصلت بما في قوله :

وإنا لمما نضرب الكبش ضربة
على رأسه تلق اللسان من الفم

قاله السيرافي [٤] وابن خروف [٥] وابن طاهر [٦] والأعلم [٧] وخرجوا عليه قول سيبويه : واعلم أنهم مما يحذفون الكلم . قال ابن هشام : والظاهر أن من فيهما ابتدائية وما مصدرية وأنهم جعلوا كأنهم خلقوا من الضرب مثل خلق الإنسان من عجل . اهـ .

فاحتمل كلامه مخالفتهم في أن جعلوها بمنزلة ربمـا لأن ربما لا تتعين للتكثير واحتمل أنه فسر كلامهم بحمله على إرادة التكثير ، وكذلك فسر عياض كلام ثابت السرقسطي ، وانتقلوا من كونها بمعنى ربما لأن ربما التي حمل عليها هي المفيدة معنى التكثير .

(١) في مسند ابن أبي شيبة انظر مختصر إتحاف المهرة بزوائد المسانيد العشرة للشهاب أحمد البوصيري الكناني المتوفى سنة ٨٤٠ في الإمامة

(٢) ذكره ابن هشام في مغني اللبيب في مبحث من . وأبو حية شاعر من مخضرمي الدولتين ، وهو شاعر مقدم فصيح احتج أئمة الاستعمال بكلامه

(٣) البيت مذكور في مواضع من كتب الأدب وممن ذكره ابن قتيبة في كتاب الشعراء ، وقائله مالك بن أسماء شاعر أموي ممن احتج بشعره في العربية واحتج بشعره صاحب لسان العرب .

(٤) السيرافي الحسن بن عبد الله أبو سعيد الإمام النحوي توفي سنة ٣٦٨ ببغداد

(٥) ابن خروف علي بن محمد بن خروف الأشبيلي الأندلسي توفي بأشبيلية سنة ٦٠٩ وعمره خمس وثمانون ، له شرح على كتاب سيبويه

(٦) ابن طاهر محمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري الأشبيلي المعروف بالخدب أخذ عنه ابن خروف ، له طرر على كتاب سيبويه .

(٧) يوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي المعروف بالأعلم المتوفى سنة ٤٧٦ كان من أئمة النحو والأدب وله تآليف قيمة .

وقد أشار ثابت السرقسطى والسيرافى وابن هشام إلى إبداء الرأى فى كيفية الحذف التى اعتورت هذا التركيب، وأبقت فيه إفادة معنى التكثير أو معنى ربما أو غير ذلك ، وهو واضح من كلامهم .

ومنه يظهر ترددهم فى منشأ معنى التكثير من هذا التركيب، فمقتضى كلام السرقسطى وما نقله عياض عن غيره أن منشاه هو حرف ما، ومقتضى كلام ابن هشام أن منشأ ذلك هو حرف من، ولذلك ذكره فى عداد معانى من .

وقد مضت عصور على هــذا التركيب لم يحظ فيها بالتروع إلى عكره وحضن فراخه فى وكره، فقد أهمله الجوهرى فى الصحاح وابن منظور فى كتاب لسان العرب وأهمله أصولها لا محالة ، وأهمله ابن الأثير فى النهاية ، فكان ذلك قصورا فى إحصاء اللغة إلى أن قيضت له يقظة العــلامة الفذ الفيروزابادى فآواه إلى القاموس المحيط فقال فى باب الألف اللينة عند الكلام على حرف ما :

" وإذا أرادوا المبالغة فى الإخبار عن أحد بالإكثار من فعل كالكتابة قالوا إن زيدا ممــا أن يكتب أى أنه مخلوق من أمر، ذلك الأمر هو الكتابة ". اهـ .

وأقره صاحب تاج العروس فلم يشرحه ولا تعقبه ولا بين مأخذه ولا استشهد له خلافا لطريقته ، فدل على أنه لم يطلع فى هذا على شيء يرجع إليه. وأن اهتداء صاحب القاموس إلى ذكر هذا الاستعمال وتفطنه إلى أنه يأوى إلى موضوع علم اللغة واختصاصه بذلك دون سائر كتب اللغة لمن جملة تدقيقاته وخصائصه . فلله دره .

ثم إنه بلاشك أخذه من كلام السيرافى، وإن سكوت صاحب التاج (تاج العروس) عن بيانه تقصيرا فى التزامه الذى اعتاده لدليل على سكوت المعلقين على القاموس من قبل صاحب التاج وأنه لم يطلع على كلام السيرافى ولا على كلام ابن هشام .

وبعد فإن كلام القاموس منتقد من أربع جهات : الأولى أنه اقتصر على الاستعمال الغريب الذى ثنى به السيرافى، ولم يذكر الاستعمال الخلى عن حرف أن الذى ابتدأ به السيرافى . الثانية أنه جعل المستفاد منه المبالغة فى التكثير وهذا لم يدعه أحد، وإنما هو يفيد أصل التكثير. الثالثــة أنه خص ذلك بالإخبار عن أحوال الناس لقوله « عن أحد » مع أن ذلك لم يخصصه الذين تكلموا على معناه فهو يأتى فى الإخبار عن أحوال الناس وعن أحوال الأشياء كما فى بيت مالك بن أسماء . الرابعــة أنه ذكره فى معانى ما . فأنبأنا بأنه جعل منشأ معنى الكثرة من حرف ما ، وهو يخالف تفسير الأئمة ويخالف ما فسره هو نفسه، إذ قال أى أنه مخلوق من أمر، وجعل مفاد ما مبهما يبينه ما بعده من الفعل . فكان حقــه أن يذكره فى معانى من كما فعل ابن هشام فى مغنى اللبيب . وللغفلات تعرض للأريب .

تذييل

ينبغى التنبه إلى أن هذا التركيب إذا استعمل هذا الاستعمال يجئ فى موضع خبر المبتدأ كما فى بيت أبى حية وبيت مالك بن أسماء ، ويجئ

فى موضع خبر كان كما فى حديث ابن عباس فى البخارى ومسلم وحديث البراء بن عازب فى مسند ابن أبى شيبة، ويكون فى موقع الحال كما فى قول رافع بن خديج فمن ظن اختصاص ذلك بخبر كان فقد وهم .

والتنبيه إلى أن أصل استعماله فى هذا المعنى أن لا يصرح معه بلفظ الكثرة، فما وقع فيه لفظ كثير فهو جار مجرى التفسير من الراوى أو مجرى التأكيد من القائل لخفاء دلالة التركيب على التكثير ، ومثاله قول سمرة بن جندب "كان رسول الله مما يكثر أن يقول لأصحابه هل رأى أحد منكم رؤيا[1]" وقول أبى موسى : "وكان رسول الله كثيرا مما يرفع رأسه إلى السماء[2]".

(١) فى صحيح البخارى فى كتاب التعبير .

(٢) فى صحيح مسلم فى باب أن النبى صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه .

والتنبيه على أن قول السيرافى: وتقول العرب أيضا أنت مما أن تفعل الخ غريب لا يعرف شاهده من فصيح الكلام فضلا على كون حرف أن فيه غير واقع موقعا مع ما فيه من اجتماع ثلاثة حروف من حروف المعانى . . متوالية ، وهى من وما وأن سواء جعلت ما مصدرية أو زائدة .

الاقتراح

فأقترح على المجمع اللغوى أن يسجل إلحاق هذا التركيب فى القاموس الأكبر المزمع على تأليفه ، وأن يكون إثباته فى حرف من ، وأن يستشهد له بشواهده التى ذكرتها وما عسى أن يلحق بها من الشواهد ، وأن يثبت التنبيه على ما فى كلام السيرافى من التوقف. والله يعصمنا من الزلل ، ويزين معلوماتنا بالعمل .